أمثلة من الترجمة

Mehrnousch Zaeri–Esfahani
Mehrdad Zaeri–Esfahani (الرسام)

33 Bogen und ein Teehaus

Peter Hammer Verlag, Wuppertal 2016
ISBN 978–3–7795–0522–8

صفحات 7–23

Mehrnousch Zaeri–Esfahani
Mehrdad Zaeri–Esfahani (الرسام)
٣٣ قنطرة وشاي خانة

ترجمة: شدا بي هبة

© 2016 Peter Hammer Verlag, Wuppertal / Arabic Translation: © 2016 Litrix.de

مقدمة
پريپيات

الپريپيات، إنه ذلك النهر العظيم الذي يناهز طوله ثمنمائة كيلومتر ويقع منبعه في أوكرانيا بالقرب من الحدود البولندية. يحيد مسار هذا النهر متجهًا إلى روسيا البيضاء متعطشًا إلى المغامرة، ويرسل مياهه المنهمرة لتملأ أهوار الپينسك، تلك التي يحولها خلال فترات ذوبان الثلج إلى مشهد مائي جامح. وفي نهاية طريقه يعود الپريپيات ليتدفق في أوكرانيا من جديد ويصب في بحيرة سد كييف على بعد بضعة كيلومترات جنوب محطة تشرنوبيل للطاقة النووية. إن المدينة التي تقع في هذا المكان تحمل اسم النهر، حتى وإن لم تعد بحاجة إلى اسم بعد الآن.

لم تبلغ مدينة پريپيات أكثر من ستة عشر عامًا من العمر. إلا أن روحها القلقة تجول في الأنحاء كما لو كانت لا تزال لديها عمل لتنجزه على وجه الأرض. إن پيرپيات ليست من الأموات. فقد هاجمها عدو خفيّ في شبابها، فغادرها سكانها دون أن يودعوها ظنًا منهم بأنهم سرعان ما سيعودون إليها من جديد. لم يتركوا وراءهم سوى بيوتهم، تلك التي ابتلعتها الغابة ولكنها لم تتوقف عن سرد حكايات أولئك الذين عاشوا فيها يومًا ما.
لازالت الكراريس والكتب مفتوحة على المكاتب في المدارس المهجورة، والألعاب مبعثرة في الحضانات وكأنها أجزاء من أحجية لم تكتمل بعد. ربما يظن أحد الزائرين أن الأطفال سيعودون على الفور ويواصلون اللعب. ترسَّبت على كل شيء طبقة سميكة ولزجة من التراب الرمادي، كما يحدث لتلك الأشياء التي تهيم على مدى مئات السنين فوق الأسطح المنسية.
پريپيات هي مدينة أشباح.
هنا، فيما يعرف اليوم باسم أوكرانيا، وفي الاتحاد السوفيتي سابقًا، وقعت قبل ثلاثين عامًا أكبر كارثة نووية ناجمة عن إخفاق بشري على مر التاريخ. توفي بعض سكان المدينة على الفور إثر التهاطل النووي، والبعض الآخر توفي بعد فترة قصيرة على نحو مؤلم، ولازال يعاني العديد من الناس من أمراض خطيرة جراء هذا الحادث إلى يومنا هذا. ولذا، فإن جميع سكان پريپيات كانوا من بين ضحايا الكارثة بطريقة أو بأخرى، تلك التي أعلنت عن نفسها في إحدى ليالي أبريل اللطيفة بانفجار مدوٍ تبعه صمت قاتل استمر إلى الأبد.
عاش في پريپيات، على غير العادة، العديد من الأسر الشابة. فتلك المدينة كانت قد أُنشِئَت خصيصًا من أجل المهندسين والعمال العاملين في محطة الطاقة النووية الواقعة بالقرب منها. جاءوا إليها وهم مفعمون بالآمال. كانوا روادًا مختارين من قبل الحكومة السوفيتية، سعوا إلى تحقيق شيء مميز مستعينين في ذلك بعلمهم ومهاراتهم وبالتكنولوجيا الحديثة. أشارت تقارير لا حصر لها إلى مدى ما تمتعت به تلك المدينة اليافعة من سعادة وطموح. وإن من تسنى له في الاتحاد السوفيتي آنذاك أن ينتقل إلى پريپيات كان قد حقق إنجازًا بالفعل.
آنذاك، في شهر أبريل، كان سكان المدينة في انتظار القدوم الوشيك لفصل الربيع بسعادة غامرة، وكانت بشائره قد هلَّت منذ فترة طويلة وغمرت المكان. مرَّ سكان المدينة بشتاء شديد وقاس. وتطلعوا إلى السوق السنوية التي كان من المفترض افتتاحها في شهر مايو دون أن يدركوا أن هذا هو آخر شتاء سيزور مدينتهم الحبيبة. كانت العجلة العملاقة بقواربها الليمونية المعلقة قد نُصِبَت بالفعل في المدينة منذ أسابيع طويلة وكانت تبدو كعملاق طيب لديه آلاف الأذرع يحمل في كل من أياديه وعدًا لهؤلاء الذين اعتصرتهم البرودة.
لم يدر أحد من سكان المدينة أن حتى هذا العملاق لن يستطيع أن يفعل شيئًا حيال هذا المصير القاسي غير المتوقع والذي كان بانتظارهم جميعًا. لم يكن أحد يدري أنهم سيتعين عليهم الفرار من المدينة قبل أن تدور العجلة ولو لمرة واحدة. ولم يكن لأحد أن يتصور أنه لم يبق لبعضهم سوى أسابيع أو أشهر قليلة في الحياة.
إن رهبة الموت لم تتسلل فقط لسكان مدينة پريپيات حين باغتتهم الكارثة فجأة وجلبت لهم العذاب والألم وكأنها عملاق ضخم، بل إن مخالب هذا المخلوق الرهيب امتدت إلى ملايين الناس في جميع أنحاء العالم. وتساءل الناس ما إن كان التلوث الإشعاعي سيطالهم أيضًا. وأخذ الأطفال يطرحون أسئلة بلا أجوبة على آبائهم. رأى البعض أن نهاية العالم آتية، بينما لجأ البعض الآخر ممن تملكهم اليأس إلى الانتحار.
بل إن حتى الخبراء عجزوا عن تفسير عواقب تلك المأساة على كوكب الأرض. اقترب الناس بعضهم من بعض ووحدوا صفوفهم وأصبحوا ككائن واحد يحبس أنفاسه مرتجفًا من الخوف والرعب. هذا الصمت القاتل وحالة الذعر العامة أسرا العالم أجمع.

© 2016 Litrix.de

العالم أجمع، فيما عداي أنا. تلك الصور الرهيبة والصادمة للكارثة النووية كانت تخترق شاشة التلفزيون الساطعة وتتراءى أمام عيني، ورغم ذلك، كانت هناك يد خفية تختزلها في ذهني في بيكسل واحدة وتختزنها في درج الموضوعات غير الهامة. لأن عالمي آنذاك كان صغيرًا، صغيرًا جدًا، وضيقًا إلى أبعد الحدود، ضيقًا كثقب أسود في المجرة يسحب ويمتص كل شيء بداخله بحيث لا يتبقى شيء.

لم يكن هناك أحد في عالمي سوى أبويّ وشقيقيّ الأكبر مني سنًا وشقيقتي الصغرى وأنا. كنَّا بمثابة حجاج من أصفهان عالقين في كارثتنا التي فاقت أي وصف.

لحظة وقوع الكارثة كنَّا قد وصلنا ألمانيا لتونا. أخيرًا وجدنا مكانًا من شأننا أن نستريح فيه بعد رحلة هروب استمرت على مدى أربعة عشر شهرًا. اختبأنا تحت قبة زجاجية، حيث وجدنا ملاذًا آمنًا في شقة صغيرة من ثلاث غرف في مشروع للإسكان الاجتماعي بمدينة هايدلبيرج. انعزلنا عن العالم لنتمكَّن من استجماع قوانا، ولنجد أخيرًا الوقت لنودع وطننا ونستوعب ما حدث.

كان من الضروري بالنسبة لي أن أحتمل الطريق الطويل إلى المدرسة في الترام المجهول يوميًا، أن ألتقط آلاف الكلمات الأجنبية، وأن أتعلَّم لغة جديدة، وكان من الضروري أيضًا أن أعمل على استكشاف هذا العالم الجديد الذي تمثَّل في أوروبا، التيطالما تقنا إليها بشغف. وكان من الضروري العثور على جنيَّة طيبة ترافقني بلا شروط لتواسيني وتمنحني الأمل، وأن أفهم كل الأشياء الغريبة التي يفعلها هؤلاء الغرباء في هذا البلد العجيب.

كان من الضروري أن أفهم الخطابات العديدة والمعلومات الكثيرة التي ترسلها المدرسة وأن أترجمها لأبي وأمي.

كان من الضروري أن أحتمل السلوكيات العدوانية الجارحة ومضايقات زملائي وزميلاتي دون أن أتمكَّن من الرد عليها.

كان من الضروري بالنسبة إليّ أن أعتاد أنا ومعدتي على الطعام الرتيب وغير المألوف الذي يُقَدَّم في مطعم المدرسة، وأن أعتاد على هذا الكم الهائل من الخضروات والفاكهة الجميلة، عديمة الطعم، وعلى الأرز الخالي من الروائح العطرية، وعلى هذا الكم الهائل من البطاطس وعلى المشروبات شديدة الحلاوة.

كان من الضروري لنا أن نتعلَّم التفريق بين خطابات السلطات والرسائل الدعائية. وأن نفهم لغة ونظام السلطات في جمهورية ألمانيا الاتحادية وأن ننتهي يوميًا من ملء استمارات تعيَّن علينا تقديمها في أوقات محددة. كما كان من الضروري أن نحرص على عدم التوقيع في المكان الخطأ.

كان من الضروري أن نتحمَّل موشحات الإهانات من كبار السن، أولئك الذين كانوا يتمنون لو ذهبنا وراء الشمس، وأن نحتمل تربيت الآخرين الأكبر سنًا في صمت، ذلك الذي كان نابعًا عن نوايا طيبة رغم طبيعته المتعدية.

وعلى ذلك، لم يتبق لي أو لعائلتي وقتٌ للانشغال بكارثة القرن.

هكذا فاتتنا حادثة تشرنوبيل.

الفصل الأول
إيران
أصفهان

تبدو إيران من أعلى وكأنها قطة جالسة، تدير رأسها نحونا وتتطلَّع إلينا. تحمل القطة على ظهرها بحر قزوين الهائل. وتمتد جبال زاغروس الشاهقة بين كفيها الأماميين متاخمةً بطنها الناعم. ينبع من هذا المكان نهر عظيم يسميه الفرس "زاينده رود" أي "النهر الواهب للحياة". يتدفق النهر الجامح على مدى ألاف الأمتار منحدرًا لأسفل الجبل.
وما أن يصل إلى سفح الجبل حتى يسري عبر مدينة أصفهان الأبيَّة. إلا أن علاقة الحب التي تجمع ما بين النهر والمدينة لا تستمر طويلًا، لأن هذا النهر الواهب للحياة يموت بمجرد رحيله عن المدينة، كحال ذكر النحل البري بعد زواجه من ملكة النحل. في تلك المنطقة تتحول الأراضي الشاسعة إلى مستنقعات خطرة وبحيرة ضخمة مالحة، تلك البقعة البيضاء الساطعة التي ينبض عندها قلب القطة.

قبل أكثر من مئة عام كان هناك شاب جالس في مكتبه منشغلًا للغاية وكان يُدعى عباس علي، هذا الاسم الجميل كان اسمه الشخصي وليس كنيته. كان شابًا أصفهانيًا معتزًا بنفسه، استطاع أن يصبح رئيسًا لأكبر منشأة لإنتاج الملح في أصفهان. كانت أشولة الملح تتكدَّس حول مكتبه وكان يحظى باحترام الجميع باعتباره أحد القلائل الملمِّين بالقراءة والكتابة. وفي يوم من الأيام دخل مكتبه موظفون من بلاط الإمبراطور وسلموه رسالة: "السيد المحترم عباس علي، نحن رسل الإمبراطور، رضا شاه بهلوي، شاه الفرس العظيم. نبلغكم باسم الشاه وبناءً على أوامره، رضا شاه بهلوي، شاه الفرس العظيم، بأنه ينبغي على كافة المواطنين في بلاد فارس ابتداءً من اليوم أن يحملوا كنى إلى جانب أسمائهم الشخصية. ولهذا السبب ستحصلون على سجل عائلي."
تعجّب الشاب عباس علي كثيرًا، أو بابا عباس علي، كما سيناديه أحفاده بكل حب في المستقبل البعيد على الأرجح، وتساءل بأسلوب مهذب قائلًا: "اغفروا لي جهلي العظيم، وسؤالي التافه، ولكن ما هو السجل العائلي؟"
أوضح الموظفون لعباس علي أن هذا الدفتر مخصص لتسجيل أسماء الأفراد وكناهم وأسماء آبائهم على مر العصور: "فمن خلال هذا الدفتر سيتسنى التمييز بين الناس على نحو أفضل، أيها المبجَّل، عباس علي. ولذلك، فإننا نرجو منكم أن تفكروا سريعًا في كنية لكم. فقد قطعنا مسافة طويلة ولازال أمامنا مسافة أطول، وسوف تغرب الشمس القاسية عما قريب."
لم يكن عباس علي مستعدًا لذلك، وكان لابد وأن يأخذ وقته في التفكير أولًا. نظر حوله، وأخذ يفكر وهو يضغط على شفتيه ويفرك أنفه لاهيًا، ثم خاطب الموظفين المستعجلين قائلًا: "حسنًا، بالنظر حولي لا أرى سوى الملح. كان أبي تاجر ملح وكذلك جدي. وأنا اليوم أطعم أطفالي من تجارة هذا الملح الرائع. أود إذن أن يكون لقبي "ابن الملح" أو "ولد الملح"، "نمكي زاده". ونظرًا لأنني نشأت في أصفهان، فأنا أود أن يكون اسمي "نمكي زاده الأصفهاني"."
تلك هي قصة نشأة لقب العائلة الخاص بأمي. لازالت تتذكَّر جدها، بابا عباس علي، حتى الآن وهو يروي تلك القصة.
يطلق الأصفهانيون "گاوخونى" على تلك المستنقعات الكائنة عند بحيرة الملح. إن المياه هنا ليست بعميقة، ولكنها مميتة. "خطوة واحدة خاطئة وتختفي إلى الأبد داخل الأراضي السبخة. فلتبق بعيدًا عن مستنقعات گاوخونى! ولا تقترب من النهر أكثر من اللازم، لأنه يتعيَّن عليه تغذية مستنقعات گاوخونى، هذا ما تقوله الأمهات لأولادهن."
كان نهر زاينده رود يضخ كميات كبيرة من المياه عبر أصفهان، وكان منسوبه يرتفع بشدة في كثير من الأحيان مما كان يتسبب في غرق الناس. فكثيرًا ما كنا نسمع قصصًا عن أشخاص سحبهم النهر واختفوا في مستنقعات گاوخونى إلى الأبد. ورغم كل ذلك، أحب الأصفهانيون نهر زايندة رود. كان يأتيهم بالفرحة وكان بمثابة نقطة التقاء لهم. لقد شهدت تلك الجسور العديدة التي امتدت عبر النهر مجيء وذهاب العديد من الناس على مدى مئات السنين. وإن أجمل تلك الجسور يبلغ من العمر أربعمائة عام وهو "سي وسه پل" أو جسر الثلاثة وثلاثون قنطرة، ثلاثة وثلاثون قنطرة تخترق الجدران وتؤدي عبر سلم إلى المياه مباشرة. وكانت بيوت الشاي تدعو الزائرين أعلى الجسر العريض المغطى للاسترخاء. في هذا المكان كان الأصفهانيون يحتفلون ويتنزهون ويغنون ويدقون الطبول ويرقصون. وكان الجسر ملتقى للعشاق ليلًا حينما تُضاء الفوهات من أسفل وتنعكس صورة الجسر على مياه النهر التي كانت تلمع كآلاف حبات الترتر المتلألئة.
وعلى هذا الجسر وفي الحدائق على الشاطئ أمضى أبي وأمي أوقات حبهما، بعدما تعرف أبي، الطبيب الشاب، على أمي، الممرضة الشابة، في المستشفى. يبقى الجسر في أول المساء خاليًا، ثم يأتي إليه المزيد والمزيد من الناس من بيوتهم، مهندمين وفي مزاج مناسب للتجول والتنزه. فيلاحظ الباعة المتجولون أن ساعتهم قد حانت، فينادون على بضاعتهم بصوت عالٍ وأغانٍ متكررة مشيدين بها قائلين: "باقالالالالا" (فول)، "جگرررر" (كبدة) أو "بلاللللل"

(ذرة)، وكانت روائح الفول الأخضر والكبدة والذرة المشوية كفيلة بجذب الناس إلى أكشاك الطعام. وكلما تنافست فوانيس الشوارع والسماء المرصعة بالنجوم فيما بينها وازدادت إشراقًا، كلما علت صيحات الأطفال المفعمة بالبهجة. كانت بعض الأسر تتجول على الجسر طوال الليل، فيشتري الكبار المثلجات المحبوبة للأطفال. ثم تستيقظ الحياة على نهر زاينده رود "النهر الواهب للحياة". كنتُ آنذاك في الرابعة من العمر وكان الجسر مكاني المفضَّل.

وفي يوم من الأيام، زارتنا خالتي المفضَّلة مع زوجها ليستمعا مع والديّ إلى الراديو. وتلك كانت أول مرة لا يلعبون فيها الورق معًا. وبعد انتهاء نشرة الأخبار، أطفأ أبي الراديو.

قال أبي: "هذا الشاه قد أرهق صبرنا." كان يقصد الإمبراطور الإيراني الذي اتخذ لنفسه لقب "الشاه محمد رضا بهلوي، شاهنشاه، آخر أباطرة عرش الطاووس". كان الكبار يشعرون بالفخر لأنني كنت أحفظ اسمه بالكامل عن ظهر قلب وأردده غيبًا. واليوم، تحدَّثوا عنه طويلًا، ولكن بسوء. طالما وجدتُ الشاه رائعًا، وكنتُ أعتبر زوجته، فرح ديبا، أجمل إمبراطورة في العالم. وكلاهما كان لديه تاج فائق الجمال. وفي كثير من الأحيان كنت أرسمهما وأبنائهما من الأمراء والأميرات. "تخطى الشاه حدوده كثيرًا، يعيش حياة مترفة من خيرات البلاد، بينما يعم الفقر الشوارع."

وقالت أمي: "فلتلقوا نظرة على القصور فحسب." واستطردت خالتي قائلة: "يجب أن نفعل شيئًا حيال ذلك. تحدَّثنا بما فيه الكفاية، وآن الآوان لنفعل شيئًا"، ثم نهضت. "من منكم سيأتي معي. سأذهب الآن على الفور إلى ميدان الشاه وسأهتف بصوت عالٍ. فنهض أبي كذلك وقال بحزم: "نعم، تمامًا. تلك فرصتنا الوحيدة." ثم وجَّه أبي نظره إليّ، وكنت أرقد حينها على بطني على الأرض وأسند رأسي بين يدي، وقد استمعت إلى ما قاله الكبار، وقال لي: "ستأتين معنا، ارتدِ حذاءك." فسألته أمي: "ألن يكون الأمر بالغ الخطورة." فرد عليها أبي قائلًا: "لقد سمعتِ ما قيل في الراديو، هناك عائلات في الميدان. لن يطلقوا النار على الأطفال بالتأكيد."

سرنا إلى ميدان الشاه. كنت أحب هذا الميدان، لأنه كان يتسنى لي النظر إلى الأفق من هذا المكان. كان ميدانًا فسيحًا. وكان شقيقي الأصغر سنًا قد قدَّر مساحته مع أبي، وتوصلا إلى أن مساحته ينبغي وأن تساوي مساحة ثلاثة عشر ملعبًا من ملاعب كرة القدم. لم أكن قد رأيت ملعب كرة قدم من قبل. ولكنني كنتُ أعرف أن مساحة ملاعب كرة القدم كبيرة جدًا، لأن أخي أخبرني بذلك. وكنتُ أصدق كل ما يقول. كان بإمكاني الوثوق به. لم يكن يكبرني سوى بعام واحد، ولكنه كان يرافقني في كل مكان، وكأنه ملاكي الحارس الخفي. كان أخي نحيفًا وخفيف الحركة ومرحًا ورياضيًا ومحبوبًا. وكان يكافح ما يراه من ظلم حوله بحكمة وبحماس معدٍ، ويهزم خصومه بخفة دمه وسحره. كما كان شديد الذكاء أيضًا، ويثير إعجابي بعدم تناوله حلواه كلها دفعة واحدة أبدًا. وكنت كثيرًا ما أسأله عن السبب: "لِمَ لا تتناولها كلها على الفور؟".

كان يجيبني مرارًا وتكرارًا بنفس القدر من الصبر والحكمة: "أحتفظ بما تبقَّى لفترات القحط."

وهو ما كان يثير إعجابي كثيرًا، ونويت أن أحتفظ في المرة القادمة ببعض الحلوى "لفترات القحط"، رغم أنني لم أكن أعرف حينها المعنى الحقيقي لفترات القحط.

إذن، فهذا الميدان الذي كان في مثل مساحة ثلاثة عشر ملعبًا من ملاعب كرة القدم بكل تأكيد، كان في هذا اليوم يعجُّ بالبشر. كانوا يهتفون كلمات لا أفهمها. قلت لأبي: "بابا، أنا لا أرى شيئًا، أنا خائفة."، وأخذت أجذب يده. كان واقفًا هناك ناظرًا إلى الحشد وعيناه تلمعان. ولم يشعر بيدي الصغيرة. فقلت له: "بابا، أيمكنك أن تحملني على كتفيك؟ أرجوك!" انتبه لي حينها ورد قائلًا: "آه، بالطبع!" حملني بيديه الكبيرتين وأجلسني على كتفيه، التي كنت أشعر دائمًا كما لو كانتا سفينة قوية لن تهلك أبدًا.

ما أن شممت رائحة شعر أبي حتى تلاشى شعوري بالخوف. أدخلت أنفي في شعره الأسود الناعم وفتحت عيني على مصراعيها، كعيني طفل في الخامسة من عمره.

تطلَّعت إلى بحر من البشر. نظرت إلى اليمين وإلى اليسار وحتى إلى الخلف، لم أر سوى بشرًا، بشر في كل مكان. لم يعد بإمكاننا رؤية الشوارع أو الأشجار أو السيارات. لأن الناس كانت قد تسلقت كل ما في الميدان. بل إن كم الأشخاص المتدلين من الأشجار فاق قدرة احتمالها. وقف الناس على أسطح السيارات يرقصون ويدقون الطبول. ومن آن لآخر سرت عبر الحشود موجات من البشر أدركتني أنا وأبي مرارًا وتكرارًا.

تذكَّرت عطلتنا الأخيرة، حين سافرنا مع أبناء خالتي وأبويهما وأجدادنا إلى بحر قزوين وقمنا برحلة على متن قارب سريع. كان صوت الضجيج الصادر عن المحرك عاليًا لدرجة اضطرتني إلى أن أسُدَّ أذني. رأيت كيف ترتطم المياه بمقدمة القارب وتندفع محمَّلة برغوة كثيفة بمحاذاة الجانبين. بعدها أوقف السائق المحرك فجأة، فظل القارب متوقفًا في سكون. وبعد وهلة كانت المياه قد هدأت تمامًا، وطلب الكبار من الجميع الالتزام بالهدوء حتى يتسنى لنا أن ننصت لسكون البحر. في هذه اللحظة بدأ القارب يتأرجح، فكل موجة كان البحر يدفعها نحو القارب كانت تحركه بخفة لترفعه وتهوى به مجددًا. حينها قال لي أخي الأكبر أن أغمض عيني، فشعرت بأرجحة القارب على سطح المياه. وحزنت حين استأنف الكبار الحديث مرة أخرى وقام سائق القارب بتشغيل المحرك مجددًا.

ها هي الأمواج مجددًا. كل موجة تدرك أبي تؤرجحنا فترفعنا لأعلى. أغمضت عيني. وتركني أبي جالسة على كتفيه لفترة طويلة، وحين غلبني التعب، حملني على ذراعيه وعاد بي إلى المنزل. وفي الليلة ذاتها حلمت ببحرٍ مغردٍ، بحر تشدو أمواجه بشعارات ثورية: "لا إله إلا الله، يحيا الزعيم!". وفي عطلة نهاية الأسبوع ظللت أستجوب جدتي، التي كانت قد جاءت من طهران إلى أصفهان لزيارتنا.